تقنيات المفارقة في شعر الأغربة – قراءة في النسق الثقافي المضمر

أ.م.د.فاطمة حميد يعكوب

جامعة القادسية/كلية الآداب/ قسم اللغة العربية

Fatima.altameme@qu.edq.iq

تاريخ استلام البحث : ٢٠٢٥/١٠/١

تاريخ قبول البحث : ٢٠٢٥/١٠/٢٧

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة تقنيات المفارقة في شعر الأغربة. وممّا لاشك فيه أن المفارقة من أهم المصطلحات التي تناولها النقد الحديث، وقد تجسد هذا الاهتمام في عدد كبير من الكتب والمقالات والرسائل والأطروحات المكرسة لدراستها. وينبع الاهتمام بالمفارقة الشعرية من تأثير النقد الغربي المعاصر على النقاد العرب.

تناول البحث هذه الفئة من الشعراء الذين اتسموا ببشرتهم السوداء، مما دفع قبائلهم إلى نبذهم. وقد صاغت هذه القضية صراعًا واضحًا في شخصياتهم وموقف قبائلهم منهم، فميّزت المفارقة سلوكياتهم ودفعتهم إلى التمرد على الظلم الاجتماعي. وممّا لا شك فيه أن المجتمع يخلق المفارقة، ويصبح الشاعر بدوره ضحيتها. وعليه، يؤكد الشاعر في شعره على شعوره العميق بالفجوة التي تفصله عن عشيرته، والتوتر الكبير في العلاقات الاجتماعية التي يقيمها معهم. هذا ما اضطره لاختيار عالم الوحوش والضباع بدلًا من عالم الألم والأذى والانفصال. يبحث عن عالم يحتضنه، لكنه فجأةً يقبل عالم الوحوش. وقد تضمن البحث ثلاثة أنواع من المفارقات: مفارقة الرؤية، ومفارقة الحدث، ومفارقة الموقف .

الكلمات المفتاحية: المفارقة، شعر الأغربة، النسق الثقافي المضمر.

Paradox Techniques in the Poetry of Agharibah: An Analytical Study

Assit.Prof.Dr. Fatima Hamid Yacoub

University of Al-Qadisiyah/College of Arts

Fatima.altameme@qu.edq.iq

Date received: 1/10/2025
Acceptance date: 27/10/2025

Abstract:

The present study aims to investigate the techniques of paradox in the poetry of Agharibah. It is well-acknowledged that paradox is one of the most important phenomena addressed by modern criticism. This interest is incarnated in a great deal of books, articles, theses and dissertations devoted to study this phenomenon. Interest in poetic paradox stems from the influence of the Western contemporary criticism on Arab critics. The study investigates this group of poets characterized by their brown skin, which has led their tribes to alienate them. This issue has formulated a clear conflict in their characters and their tribes' stance towards them. Hence, paradox has characterized their behaviours and led them to rebel against social injustice.

It is acknowledged that the society creates paradox and the poet, in its turn, becomes its victim. Accordingly, in his poetry, the poet emphasizes his deep feeling of the gap dissociating him from his clan and the great tension in the social relations he maintains with them. This has obliged him to choose the world of monsters and hyena instead of the world of pain, harm and dissociation. He searches for a world which embraces him, but suddenly accepts that of the monsters. The researcher has identified three types of paradox; the paradox of vision, event and situation.

Keywords: paradox, Agharibah, vision, event, situation.

المقدّمة:

تقوم المفارقة على تحقيق المسافة الجمالية بين موقفين أو حالين مختلفين، فالنص المتضاد يشكل بؤرة عمل المفارقة فهي تقوم على جذب انتباه المتلقي وتحقيق عنصر المفاجأة، فهذه المتوالية الدالة تقسم النص على موقفين متضادين، وكثيراً ما يكون حضور المفارقة خفياً في أثناء النص ولكن على الرغم من ذلك تبدو واضحة جلية من خلال ذلك النسق الذي يلون النص بمتضاداته التي تمنح النصوص جمالية لا تخطأها الذائقة الفنية، فهي أهم الظواهر الفكرية والفنية التي يمكن معاينتها ورصدها في إبراز الدلالة المركزية في النص ، إذ يتخطى المدلول الأول القراءة وصولا إلى المدلول الثاني الذي يمثل البنية العميقة للمعنى ، وهذا النسق يقوم بخرق المألوف وتحقيق انزياحات أسلوبية من خلال إيجاد جو من التناقضات والمتنافرات إذ تصبح اللغة الشعرية المكثفة ركيزة النص وهي التي تميز بنيته النوعية لتحقق حضوره من تقاطع الدوال بالمدلولات، فهي في رأي أحد الباحثين "تعبير لغوي بأسلوب بليغ يهدف لاستثارة القارئ ، وتحفيز ذهنه لتجاوز المعنى الظاهري والوصول إلى المعاني الخفية التي هي مراد الشاعر الحقيقي"[١] ،

ومهما يكن فإن البحث عن تقنية المفارقة ليس بالشيء السهل بل يحتاج إلى فهم بمقاصد الشاعر ومراميه، ومن هذا الطرح الدلالي يمكن القول: إن مصطلح المفارقة يرتكز على ازدواجية الرؤية من خلال قيامها على الجمع بين الشيء ونقيضه، ويتم ذلك بوساطة الربط بين الظواهر المتشابكة والمتنافرة باعتماده الإدراك الحسي الذي يعمل على جمع العناصر غير المرتبطة في صورة واحدة، فيمزج بينهما بشكل يجعل العناصر المتنافرة لا تعتد بالتمايز والوضوح المنطقيين ، فهي قائمة على التضاد بين المعنى الظاهري والباطني. وكلما اشتد التضاد بينهما، ازدادت حدة المفارقة في النص .

ولهذه الظاهرة الأسلوبية عميق الأثر في تشكيل البؤرة الدلالية والجمالية، ومن الوسائل المهمة التي يلجأ إليها الشعراء ليحققوا لأفكارهم إشعاعات شعرية تكون قادرة على تحفيز ذهن المتلقي وإشراكه في العملية الإبداعية.

إنّ إحساس الشاعر بالمفارقة لا يقتصر على ثنائية التضاد والمغايرة والتناقض؛ لكي نفهم ونبلور مفهوم المفارقة ، بل قدرتها على شحذ ذهن المتلقي وفهمه للعالم وتفاعله مع ما يحدث أمامه ، فيكون تفاعله جوهرياً

نابعاً من فلسفته وتصوراته، وهي تظهر نظرته للعالم الخارجي ومدى تأثيره، ولهذا فإن النقاد يرون أنّ المفارقة لا يوظفها إلا الشعراء الكبار؛ لأنها تجسّد فلسفةً وشعوراً لا يستطيع لم شتاته إلا من أعطى لنفسه القدرة على محاكاة الواقع، "فهي تضمر في بنيتها الرئيسة كل ما هو إشكالي ناجم عن التوتر بين نسقين متضادين، النسق الثقافي لصانع المفارقة والنّسق الثقافي للآخر الضحية، ونتيجة لتعارض هذين النسقين وتصادمهما تبرز للوجود القضية الكبرى أو الهاجس الرئيس وهو تأسيس عالم أحادي الرؤية والنّسق"[٢].

إنّ الخطاب الأدبي في منظور النقد الثقافي ، ليس مجرد دال لغوي قائم على عناصر جمالية ومدلولات فنية مختلفة كما نراه في أغلب اتجاهات النقد ؛ بل أصبح يشكل مفهوماً ثقافياً ذا معطى فكري يحمل في طياته خلفيات تاريخية قادرة على فهم الأنساق المضمرة والبنى القارة في النص لأنّ "النص الأدبي جزء من سياق تاريخي يتفاعل مع مكونات الثقافة الأخرى من مؤسسات ومعتقدات وتوازنات قوى وما إلى ذلك"[٣]. وعلى هذا فإنّ القراءة الثقافية للأنساق المضمرة تمثل منهجاً جديداً في مسار النقد الحديث ترتهن في تحصلها على إمكانات النص القرائي للمضمرات النسقية المتوارية خلف ستار الاستاطيقي (الجمالي) وتشكلاته الممكنة فهي قراءة كما يقول ستيفن غرينبلات تهتم بشكل خاص (بالظروف الطارئة) والذوات النمطية والتمثيل على وفق الأحكام المنتجة وصراعات الثقافة المفترضة، وقد تضمّن البحث ثلاثة مباحث؛ أولها: مفارقة الرّؤية، وثانيها مفارقة الموقف، وثالثها مفارقة الحدث.

اعتمد البحث منهج النقد الثقافي للكشف عن الأنساق الفكرية والاجتماعية المضمرة في شعر الأغربة، مستعينًا بأدوات الوصف والتحليل لتفسير المفارقة بوصفها تمردًا على النسق القبلي. وقد تضمّن ثلاثة مباحث: أولها: مفارقة الرؤية، وثانيها: مفارقة الموقف، وثالثها: مفارقة الحدث

المبحث الأول: مفارقة الرؤية:

مفارقة الرؤية "هي مفارقة تقوم في أساسها على التغاير والتعارض بين ثقافتين: ثقافة الشاعر وثقافة العشيرة/ المجتمع إزاء التصرف والعمل في الحياة"[٤]. معلوم إنّ العربي يؤمن بضرورة انتمائه إلى قبيلته التي تحميه وتوفر له الأمان لكن هذا الأمر مختلف عند الشعراء الأغربة*، فقد نبذتهم قبائلهم ورفضت انتماءهم إليها، وقد كان السبب المباشر في معاملة المجتمع للأغربة بهذه القسوة التي أدت إلى تكوين هذه العقدة في

نفوسهم وتحولها إلى جزء رئيس من أجزاء مكونهم النفسي يكمن في أمرين، الأول: سواد اللون إذ ظل المجتمع العربي ينظر إلى الأغربة على أنهم "أولئك الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم الإماء، فلم يعترف بهم آباؤهم، ولم ينسبوهم إليهم؛ لأن دماءهم ليست عربية خالصة، وإنما خالطتها دماء أجنبية سوداء لا تصل في درجة نقائها إلى درجة الدم العربي"(٥). لقد ترك هذا الأمر تأثيره الواضح في سلوك الشاعر، فكأنه قد أصبحت لديه ثقافتان ثقافة القبيلة وثقافة هذا الشاعر ، فالأولى هي نتاج جمعي متراكم يمثل السلطة الأعلى التي تحكم القبيلة في حين الأخرى تولدت نتيجة الإحساس بالتهميش والظلم وكأنها ثورة على تلك التقاليد البالية، ولا شك في أن هذه المفارقة على مستوى الرؤية تنتج عنها مفارقات أخرى، ويمكننا أن نقف على بعض النماذج الشعرية التي تصور تلك المفارقات، يقول الشنفرى(٦):

أَقِيْموا بني أُمِّي صدورَ مَطِيّكُم فإنِّي إلى قومٍ سواكم لأمْيلُ
ولي دونكم أهلون: سيدٌ عَمَلَّسُ وأرقط زُهْلولٌ، وعرفاءُ جَيأَلُ
هم الرَّهطُ، لا مستودعُ السِّرّ شائعٌ لديهم ولا الجاني بما جَرَّ يُخْذلُ

يطرح قانون المفارقة تصادم رؤيتين رؤية القبيلة التي نبذته ، فهم برأيهم لا يستحقون العيش معهم؛ لأنّهم عبيد ولدوا من نساء إماء، ورؤية الشاعر الباحثة عن أمل وأمان عن طريق الاندماج بالمجتمع وعيش حياة هانئة، ولما كانت القبيلة تخضع للقانون القبلي الذي كان هو القانون الاجتماعي، كان من الطبيعي أن يكون هناك من يخرج عن هذا القانون من الأغربة؛ لأنّ هذا الخروج يمثل ـ بحد ذاته ـ تمرداً، فكان هو الناتج الأخير لتأثير التقاليد القبلية القاسية وانعدام صوت الحق والتمايز بين البشر، فهذا الشنفرى بعدما تنكرت له قبيلته وأعرضت عنه يعلن خروجه عن قانون القبيلة فيثور عليهم ويصرخ فيهم.

فعالم الشاعر هو عالم مثالي يبحث عنه دون أن يكون هناك تمايز بين أبناء القبيلة الواحدة، تقوم تقنية المفارقة على التصادم بين رؤية القبيلة لهذه الطائفة من البشر على أنهم ليسوا من أبنائها أو أنها تعاملهم كالعبيد، وبين أحلام الشاعر الضائعة، وعلى الرّغم ممّا انمازوا به من شجاعة وحمية لحماية القبيلة وبذل النفس من أجلها.

إن المجتمع يصنع المفارقة والشاعر بدوره ضحية لتلك المفارقة، فيؤكد الشاعر في قوله هذا عمق إحساسه بالهوة التي تفصله عن بني قومه، وشدة التوتر في العلاقات الاجتماعية معهم، مما دفعه إلى اختيار

عالم الوحوش والضباع بديلاً عن عالم الألم والأذى والقطيعة، فهو يبحث عن عالم يحتضنه لكنه سرعان ما يرضى بعالم الوحوش بديلاً عن عالم البشر بكل ما فيه.

جعلنا الشنفرى إزاء مفارقة كبيرة على المستوى الفكري والتداولي، فمن دون أن يتكلف الشاعر في الانهماك والسعي الكبير وراء الملفوظات التي تشي بالتعقيد وعدم التلاؤم والانسجام، مارس أسلوبه الفني في الصياغة الشعرية المميزة في تقديم مفارقة على مستوى الفكر سجَّل من خلالها تهكمه من واقع يعيشه، فمن يمارس فعل التلقي لهذا النص لا يجد صعوبة في الإمساك بأسلوب المفارقة؛ لأنّها مستوحاة من واقع الحياة بصياغة لغوية سلسة متصالحة مع بيئتها غير منفصلة عنها لذا أقام هذه المفارقة عبر لغة تتماز بكونها لغة ترتكز على الدقة والابتعاد عن الإغراق في المجاز بكل أشكاله.

وتحتد المفارقة بين تأبط شراً وقبيلته، فهو يرى أنّ الصعلكة عالمه الخاص الذي يتسم بالكمال، وهذا يتعارض مع قانون القبيلة التي تراهم خلعاء وترفض اندماجهم في مجتمعهم، فيقول(٧):

لكنّما عَولي، إن كنت ذا عولٍ ... على بصيرٍ بكسبِ الحمدِ سبّاقِ
سبّاقَ غاياتِ مجدٍ في عشيرته، ... مُرجعِ الصوت هدّاً بين إرفاقِ
عاري الظنابيبِ ممتدّ نواشزُهُ ... مدلاجِ أدهمَ واهي الماءِ غسّاقِ
حَمّالَ ألوية شهّادِ أنديةٍ ... قوّالِ محكمةٍ جوّابِ آفاقِ
فذاكَ همّي وعزوي أستغيث بهِ ... إذا استغثت بضافي الرَّأسِ نغّاقِ
كالحقفِ حدأهُ النامون ،قلتَ له: ... ذو ثلثين، وذو بهمٍ وأرباقِ

يضعنا الشاعر أمام مفارقتين ونسقين متضادين، الأول هو نسق طبيعي يمثل التراكم الطبيعي لكل فرد، ويمثّل نسقاً مضمراً عند كل قبيلة، أما الآخر فهو عالم مغاير تماماً لذلك النسق الجمعي المضمر فهو يحاول الثورة على هذا النسق كي يشعر بعالمه الخاص الذي يمثل برأيه عالمه الطبيعي، في ظل هذا التمايز والاختلاف بين نسقين يعلن الشاعر الثورة على السلطة التي تمثل برأيه العبودية والرّق التي كانت من المفترض أن تمثل الوطن الذي يدافع عنه ويحميه، ونجد أن النسق الفردي لديه غير خاضع للنسق الجمعي، إنه متمرد على النسق المضاد لتشكيل عالم الذات. فيصبح النص الشعري" في أسمى تجلياته محاولة للمعالجة مع الواقع

بكيفية أو بأخرى. إنه محاولة لتحقيق الانسجام عبر الواقع المعيش. ولما كان هذا الواقع لا ينتمي إلى النص إلا من خلال شرطه اللغوي فإن الشاعر يعيد صياغة هذا الواقع

انطلاقاً من التمرد عليه لإعادة بنائه بشكل جديد تبدو معه اللغة غريبة عن واقعها الأول، واقع القول المؤتلف. وفي غرابتها تتجلى معانقتها للواقع الثاني واقع القول المختلف"[٨].

وقد تمثلت هذه المأساة بالطريقة التي كان يعامل بها المجتمع الجاهلي الأغربة من امتهان واحتقار واستعباد، ونظرات الازدراء، فكانت طريقة التعامل هذه لا تليق بطرق التعامل مع الإنسان العربي ولا تحفظ له كرامته؛ إذ كان أغربة الجاهلية منبوذين مطرودين. أمّا العربيّ المعرق في عروبته فيُنظر له نظرة تخالف النّظر لهؤلاء الأغربة، وهذا التمييز العنصري تمييز متمكّن من بنية العقلية الجاهلية.

وما زاد في معاناة الأغربة وأجَّجَ نار الحقد في قلوبهم هو أن هذا الاحتقار والامتهان لم يكن لجرم اقترفوه، أو ذنب ارتكبوه، فكان كل ذنبهم أنهم ولدوا بلون أسود لم يختاروه ليحاسبوا عليه، وأيضاً ولدوا بنسب ضعيف أو مجهول، فأصبح حال هؤلاء الأغربة الذين قابلهم الناس بالحقد والكراهية ولا يعرفون سبب هذا الاحتقار كحال الفقير الذي عاداه الأغنياء واحتقروه لا لشيء إلا لفارق الغنى هذا الحال الذي عبّر عنه الشاعر، فهذه المفارقة بين نسق مضمر مرفوض من لدن شعراء الأغربة، ممّا دفعهم هذا الأمر، كما يرى الغذامي، "إنّ المكانة المعنوية لا تتحقّق إلّا بإلغاء الآخر، واتخاذ نسق مضاد منه، والثقافة الجمعية تبارك هذه الفحولة الأنوية"[٩]. فثمّة مضمر نسقي هو تحقير الآخر، ولا يستقيم الفخر إلا بذلك، لكن هذا الأمر ربما لاينطبق على هذه الفئة المجتمعيّة التي لم يكن قصدها تحقير الآخر بقدر ما كانت تريد من ذلك الآخر أن يعطيها القليل من الاحترام والمكانة التي تستحقها، وقد اتخذ الأغربة من غرض الفخر منفذاً يعلنون بوساطته رفضهم وتمرّدهم، وفعلاً قد نجح الأغربة في تجسيد موقفهم الرافض والمتمرد من خلال تحولهم بالفخر من الصورة الجماعية إلى الصورة الفردية، فلم يعد الشاعر صوت القبيلة الناطق باسمها والمتغني بأمجادها، فهذه الثورة التي حمل مشعلها هؤلاء الشعراء كانت كافية لنسف كل ذلك النسق المضمر الذي شكل عماد وجود القبيلة.

ويبدو أن الشعراء الأغربة حاولوا من خلال تلك الموضوعات أن يصنعوا مفارقة رؤية ليجسدوا موقفين متضادين، ويمكننا أن نتلمس ذلك في كثير من النصوص، يقول عنترة[١٠]:

عَجِبَتْ عُبَيْلَةُ مِن فتًى مُتَبَذِّلٍ عارِيْ الأشاجعِ شاحبٍ كالمُنْصَلِ
شَعثِ المفارقِ مُنْهجٍ سربالَهُ لم يَدَّهِنْ حَوْلاً ولم يَتَرَجَّلِ
لا يَكتسي إلا الحديدَ إذا اكتسى وكذاكَ كلُّ مُغاوِرٍ مُسْتَبْسِلِ
قد طَالما لَبِسَ الحديد، فإنّما صَدأُ الحديدِ بِجِلدِهِ لم يُغْسَلِ
فتضَاحَكَتْ عَجَباً وقالتْ قَوْلَةً لا خيرَ فيك، كأنّها لم تَحْفِلِ
فعَجِبْتُ منها كيفَ زَلَّتْ عَينُها عن ماجدٍ طَلْقِ اليدينِ شَمَرْدَلِ
لا تَصرميني يا عُبَيلُ ورَاجِعي فيَّ البصيرةَ نظرةَ المُتأمِّلِ
أمّا تَرَيْنِي قد نَحلْتُ ومَنْ يَكُنْ غرضاً لأطرافِ الأسِنَّةِ يَنْحَلِ

ج

يحاول الشاعر في هذا النص أن يقوض نظرة المجتمع وهذه الثقافة الفوقية بينهم بوصفهم عرباً أقحاحاً وبين هذه الفئة من الشعراء السود، فلا يجد سوى المفارقة لتعبر عن موقفين مختلفين نسق ثقافي مضمر مترسخ بوعي الإنسان العربي وواقع يحاول الشاعر بناءه تبعاً لنظرته بأن لا تمايز بينهم، لقد تجلى أثر عقدة السواد في شعر عنترة واتضحت تأثيراتها فيه أكثر من غيره من الشعراء، ونرى أنّ السبب في هذا عائد إلى إيثار عنترة البقاء في قومه محاولاً التعايش معهم، على خلاف غيره من الأغربة مثل: السليك وتأبط شراً والشنفرى وغيرهم، إذ وجد هؤلاء الشعراء بخروجهم عن قبائلهم والتحاقهم بجماعة الصعاليك والخلعاء والطرداء خلاصاً من عذابهم؛ لأن مجتمعهم الجديد لم يكن قائماً على التمايز العرقي والطبقي.

إنّ جوهر السياق الذي تنطوي تحته الدلالة يشكل مشهداً مأساوياً نتيجة الصراع ما بين فكرين مختلفين، ونرى إنّ الشاعر في هذه الأبيات يقدم للمتلقي صورة شعرية مجسدة لحقيقة هذا الصراع ، وموحية به ، وعلى درجة عالية من التأثير والانفعال، والفاعلية الشعرية للمفارقة اكتسبت حدتها وتوترها من المضمون النفسي والانفعالي الذي جسدته دلالاتها التجريدية، إذ رُصدت عناصر المفارقة في هذا النص عبر بنية الرؤية المتقابلة التي تقوم على صدامٍ بين وعيين مختلفين: وعيٍ اجتماعي تمثله عبلة، ووعيٍ فردي يُجسده عنترة. فعبلة حين (تضحك عجبًا) إنّما تعبّر عن رؤيةٍ محكومةٍ بالظاهر، تنظر إلى سواد اللون وشعث المظهر بوصفه نقيصةً تَحُطّ من القيمة الإنسانية، في حين يردّ عنترة بـ (عجبتُ منها) ليقلب منظورها، فيكشف زيف مقاييسها ويقيم مفارقته على رؤية بديلة تُعلي من جوهر الفعل لا من سطح الصورة.

وهكذا تصبح المفارقة هنا فكرية ـ رؤيوية، تقوم على اختلافٍ في زاوية النظر إلى القيمة الإنسانية.

فالنص يرصد تصادُم رؤيتين: رؤية الجماعة التي تُسقط الإنسان في المظهر، ورؤية الذات التي تعيد تعريف البطولة في معناها الإنساني، وبذلك يُقوِّض عنترة النسق الثقافي المهيمن الذي يرسّخ التمايز العِرقي والطبقي، محاولاً أن يؤسّس وعيًا جديدًا يرى الإنسان من خلال جوهره لا من خلال لونه أو طبقته.

ويبدو إنّ قدر الشّعراء الأغربة واحد فهم يتخذون من مفهوم الشجاعة مفارقة لرؤية الآخرين الذين يمثلون وجه الثقافة الرافض لوجود هذه الفئة من البشر في مجتمع قبلي تسوده قيم التمايز والتفضيل، وهذا الموقف الرافض من الشعراء يمثل مفارقة للسلوك الإنساني برمته، فهذه الثقافة كانت تمثل ضغطاً ثقيلاً مع أن عنترة كان حامي قبيلته، وكان صوتها الشعري الرائع، إلا أن النظرة إليه حتى من قبيلته ظلت تعذبه وترهق نفسه، فقد ظلت كلمة(ابن السوداء) تلاحقه حتى وهو عائد من الانتصار في الحرب[١١]، فهذا السليك بن السلكة هو أيضاً يرفض تلك النظرة الدونية التي تنظر إليه بها زوجته، فيقول[١٢]:

هَزِئَتْ أُمامةُ أنْ رأتْ بي رِقَّةً وفماً به فَقَمٌ وجِلْدٌ أسْودُ

أُعطي، إذا النَّفْسُ الشعاعُ تطلّعت مالي وأطعَنُ والفرائصُ تَرعُدُ

يبدو إنّ صانع المفارقة يجسد لنا موقف زوجته التي حاولت الانتقاص منه بسبب فقره ولونه الأسود، فهذه النظرة التي تمثل نظرة المجتمع ردت من لدن الشاعر، فالشاعر في هذا النص يجسد ما كان يعتريه بسبب هذا اللون، فهو يسفه رأي تلك المرأة التي هزئت به لرقة حاله مع فقره وكثرة غزواته وأيضاً من سواده الذي كان أثره ملموساً عند هذه الفئة من الشعراء وبسبب ذلك نتج السلوك العنيف ضد الآخر وضد المجتمع الذي رفضهم.

ومهما تكن طريقة الشعراء في مواجهة واقعهم المر، فإنهم سيصلون بعد حين إلى محاولة التعويض عن هذا النقص بحلول ربما تكون غير جذرية، أو غير واعية بسبب ثقل القيود التي فرضها عليهم المجتمع في علاقتهم مع الآخرين[١٣].

إنّ الرؤية النصية لهذه الأبيات تكشف عن موقف شعوري وتأزم نفسي؛ إذ تعتلي الأبيات نبرة حزينة وهي الفكرة الرئيسة فيها ، والدلالة التي جسدتها المفارقة، هنا عملت على عكس الغرض المقصود . إنّ رؤية المفارقة جسّدها البيت الأول وجاء البيت الثاني رداً على تلك النظرة من الزوجة، فقد أصبحت المولد الدلالي والمحرك

الشعوري في نصوص الشعراء ، ولقد هيمنت مفردات اللون على معجم الشعراء الدلالي التي ارتبطت مع مفردات القهر والضياع والثورة .

وكما نعلم إنّ المفارقة رسالة تحمل مغزىً رمزياً يقوم صانعها بتوجيهها إلى قارئ ينتظر منه ردود أفعال غير متوقعة، وهذا ناتج من طبيعة المفارقة التي تقوم على التعبير عن مغزى معين أو معنى مرغوب فيه بألفاظ مضادة ومختلفة(ذات تناقض ظاهري)، وهذا ما جعل (ميوك) يعرفها قائلاً: "المفارقة طريقة في الكتابة تريد أن تترك السؤال قائماً عن المعنى الحرفي المقصود، فثمة تأجيل أبدي للمغزى"[١٤]، ومن ثم فإن البحث عن المعنى المقصود يتعدد بحسب كل متلقي قادر على الاندماج والتفاعل مع النص، واتخذ الشعراء الأغربة من الشعر وسيلة للإفصاح عما يدور في نفوسهم من مشاعر وأحاسيس وقد جاء خطابهم الشعري معبرا عن ذلك ، وهذا يتطلب منا الوقوف على تلك السنن التي تحكم النص إذ إن قصائدهم هي قصائد توجيهية إيصالية وهي لا تكون إلا بتمام أطرافها أي وجود المرسل والمرسل إليه والرسالة ، وقد ذهبت بعض الدراسات الحديثة إلى هذا النوع من الخطاب تحت اسم النّفعية أو التداولية[١٥].

ولمّا كان للحالة النفسية التي يمر بها الشاعر من صراع طبقي واستعباد وسلب إرادة وغير ذلك له الأثر في استثارة مشاعره وتحريك أحاسيسه، فقد أحس الشاعر بالحاجة إلى ما يعبر به عن ذلك الإحساس ، فكان خطابه الشعري يجسد تلك النظرة الاستعلائية والتمايز الطبقي، وما زاد في معاناة الأغربة وأجَّجَ نار الحقد في قلوبهم هو أن هذا الاحتقار والامتهان لم يكن لجرم اقترفوه، أو ذنب ارتكبوه، فكان كل ذنبهم أنهم ولدوا بلون أسود لم يختاروه ليحاسبوا عليه، وهذا ما زاد أحساس الشاعر بالمفارقة عندما أدرك بطلان زيف ذاك التمايز.

المبحث الثاني: مفارقة الموقف:

تنهض هذه المفارقة من داخل العمل الأدبي لا علاقة لها بما هو خارجه من خلال البناء الدرامي للحدث، فهي تتجلى بمواقف وأصوات ذات تركيب ثنائي متنافر قادر على محاكاة الحدث أو الحالة، أو تبنّي موقف ما يمكن من خلال إدراك ابعاد كل منهما أن يرى فيها وجه المفارقة على أن يقوم بالتنبه على هذا النمط من المفارقة والوعي بأبعاده هو المتلقي[١٦]، دون إهمال للمرجعيات الثقافية المختلفة التي شكلت الأنماط المختلفة للسياق الثقافي المضمر في الوعي الجمعي للأفراد.

والذي يهمنا في دراسة مفارقة الموقف هو مدى قدرتها على تشكيل جو درامي فاعل في بناء النص وتشكيل دلالاته المختلفة التي أسهمت الظروف الخاصة للمبدع في ترسيخ مفهوماتها، ولعل الرمز الذي يستعمله الشعراء أياً كان فإنه يعد من أهم الوسائل التعبيرية في الشعر لأنه يسهم في "نقل المشاعر المصاحبة للموقف، وتحديد أبعاده النفسية"[١٧]، وغالباً ما تبنى مفارقة الموقف على مفهومين متناقضين يشتركان في رسم أبعاد الموقف الشعري العام في القصيدة كلها.

ولو أردنا الوقوف على شعر الأغربة لوجدنا أن مفارقة الموقف تأخذ أحياناً طابع الحضور والغياب من خلال جدلية الأنا والآخر، إذ تتصارع في نفس الشاعر تلك التناقضات فمرة تطغى الأنا بحضورها ويغيب صوت الآخر/ القبيلة حين تكون مرارة الواقع تفرض بثقلها على الشاعر ونفسيته فتراه يغلب صوت الأنا على الآخر، يمكن القول: إن الشعراء كان لهم النّصيب الأكبر في صراعهم مع الآخر ، ولهم النّصيب الأكبر أيضاً في خلق ثنائيّاتهم الضديّة معه، ولعل هذا يكاد يتوافر لكل شاعر بغض النّظر عن جنسيّته وزمنه ، ولكن مع تفاوت في مدى هذا الحضور، وفي مدى عمق هذه الثنائيّة . إنّ "للثنائيات الضدية ،فاعلية في بناء النص الشعري ،من خلال توالد الأنساق وتناميها"[١٨]، إذ تنشأ هذه الثنائيات في إطار علاقته مع الآخر.

إننا لو عدنا إلى شعر الأغربة لوجدنا إنّ الصّراع يتجلى واضحًا بعناصره الثلاثة (النفسية والاجتماعية والفكرية). وكثيرًا ما نجد أنّ الشاعر تضطرب نفسيته وتتحكم فيه عادات وتقاليد دينية واجتماعية شكّلت فكره، فقد شكلت الظروف البيئية والاجتماعية التي عاشوا فيها بعيدًا عن مركز الحضارة والتأثر بها، فبقيت العادات والتقاليد البدوية القاسية هي المسيطرة عليهم.

فعنترة يفتخر بنسبه على الرغم مما سببه له هذا النسب من معاناة، وألم فلم ينكر عنترة هذا النسب ولم يتهرب منه بل لقد ساوى بين نسبه من جهة أبيه وأمه، فعلى الرغم من الصراع النفسي الخفي نرى إنّ الشاعر تتجاذبه ذاتان وولاءان، فحضور الأول يتطلب غياب الثاني وغياب الثاني يتطلب حضور الأول، يقول[١٩]:

إنّي امرؤٌ من خيرِ عَبْسٍ منصباً شطري، وأحمي سائري بالمنْصلِ

وإذا الكتيبةُ أحجمتْ وتلاحظَتْ ألفيتُ خيراً من مُعمٍّ مُخْولِ

الشاعر يعبر هنا عن ذاتين وموقفين، فمفارقة الموقف تحددها طبيعة ذلك الولاء، فيعلن أن نصفه الذي من أبيه هو من خيار عبس ونصفه الآخر لا يسمح لأحد أن يطعنه به أو يعيره به، لأنه لم يرث منهم ما يعاب عليه بنظره، وإن كان قد ورث السواد الذي هو في نظر قومه علامة ذل ومهانة، بل لقد جعل الفضل في شجاعته وفروسيته يعود إلى أعمامه وأخواله بالتساوي.

إن مفارقة الموقف يشكلها البناء الدرامي في النص، فذات الشاعر في صراع بين موقفين والذات ليست ذاتًا فردية بل هي ذات جماعية تذوب في الجماعة، وتشكل هذه الرؤية من الذات (الأنا) والآخر (الجماعة) على أنّ تقدم هذه الذات نفسها على أنها ذات فردية لا تقوم إلا مع الجماعة وتنطوي على الكثير من المبادئ التي تحددها فلسفتها للحياة.

والناظر إلى النص الشعري لعنترة يجد حضوراً للفكرة المراد تشكيلها في ذهن المتلقي، وغياب لسلطة القبيلة، فهو يقول: إنّ لوني لا يؤثر في شجاعتي فإني ورثت شجاعتي عن أمي وأبي، ولكن على الرغم من ذلك إلا أن الصراع يظهر جلياً حين يرفضه قومه، وهو ما يؤكده عنترة دائماً، فهو مرفوض من قبيلته التي لا تحتاج إليه إلّا في الحرب.

فمفارقة الرؤية يجسدها التباين الواضح في موقف القبيلة على الرغم من أن الشاعر لا يجد مناصاً في الحديث عن ذلك الموقف الذي جسده ليكشف للمتلقي عن ذلك التباين الواضح في موقف قبيلته، ومن ذلك قوله[٢٠]:

تنسى بلائي إذا ما غارةٌ لقحت تخرُجُ منها الطوالاتُ السَّراعيفُ

إنّ إحساس الشاعر بهذا يعمق غربته ويزيد من شعوره بالمفارقة إذ تستثير هذه المسألة كوامن الشاعر النفسية وتعمق إحساسه بالذل، فالتناقض واضح يجسده استغلال القبيلة له فهم يريدونه حين تحتدم المعركة وينفورنه حين يعيشون برخاء ونعمة، فالشاعر يبنى نصه القائم على مفارقة الموقف فذات الشاعر تجسد عالمها الفحولي الذي يفارقه حين يزيد نفور القبيلة له، فيكون إحساسه بالغربة أعمق وشعوره بالأسى أكبر حين تستثيره قضية معينة يكون لها أثر بالغ في نفس الشاعر، فيقع أسير لحظات اغترابية انهزامية انفعالية، تدل على شخصية مضطربة قد فقدت توازنها فلا يملك الشاعر إلا أن يصطدم بهذه القضية، وقد يختلف هذا الاصطدام تبعاً للموقف الذي تُثار فيه هذه القضية.

فبلاء الشاعر وقوته لا تطلب إلا حين يدْهَمُ الخطر القبيلة وبعدها يعيش الشاعر لحظات نفسية واغترابية صعبة، فيطرح قانون المفارقات هنا جملة من التداعيات النفسية التي تصور الصراع الحاد بين الشاعر والقبيلة، ومن هنا وقعت على الشاعر مسؤولية حماية القبيلة؛ لأن فيها من يحبه يخاف عليه مثل أمه وحبيبته، وصور الصراع تختلف من شاعر إلى آخر، فبعضهم يقنع نفسه بأنّ عليه أن لا يُظهر الضعف ولا سيما إذا كان قائدًا ومدافعاً عن القبيلة.

على الرغم من أن الشاعر يعيش الصراع والتناقض بين رؤيتين، رؤيته لقبيلته التي تدفعه إلى عدم التخلي عنها ورؤية قبيلته له بوصفه منبوذاً وغريباً، وقد يعبر موقف الشاعر من المجتمع وطريقة تقبله وتعامله مع الواقع الذي يفرضه عليه هذا المجتمع عن قضية تقوده إلى هم ذاتي وصراع نفسي يضعه في دائرة الشكوى الذاتية والاجتماعية، إذ ينفصل الشاعر ظاهرياً ليعيش آلامه[٢١].

لقد كان السّلوك العدائي من الأغربة طبيعياً لما لاقوه من ظلم واحتقار واستعباد فكان لهذه المواقف العدائية من المجتمع الذي نشأوا به وعاشوا فيه الأثر والدور الكبير في نشوء السلوك العدائي وتقوية النزعة العدوانية في نفوس الأغربة، وهذا ما تحاول (ميلاني كلاين) إثباته إذ تحاول أن "تؤشر حقيقتين في هذا المضمار الحقيقة الأولى، إنّ للإنسان غريزة عدوانية موروثة، والحقيقة الثانية: دور القلق وصعوبة البيئة في زيادة انفعال هذه الغريزة بالشكل الذي قد يجعل منها مثار تعثر وتحول ماس في حياة الفرد اللاحقة"[٢٢]، وهذا ما دفع الشعراء إلى تعميق الإحساس برؤية المفارقة والبحث عن قبيلة أخرى، وهذا ما جسّده قيس بن الحدادية إلّا أنّ قيساً قد اتّخذ قراراً مختلفاً عن قرارات الشّعراء السّابقين، فقد قرّر أن يلتجأ ويدخل في حلف قبيلة أخرى لعله يجد من يساويه مع غيره دون تمايز، فبدا وكأنه قد وجد ضالته فقال[٢٣]:

جزى الله خيراً عن خليعٍ مُطَرَّدِ	رجالاً حَموهُ آل عَمْرو بن خَالدِ
وقد حَدِبَتْ عمرو علي بعزّها	وأبنائها من كُلِّ أروع ماجِدِ
أولئك إخواني وجُلّ عشيرتي	وثَرْوَتهم والنصر غيرِ المُحارِدِ

تبرّز رؤية الشاعر، في هذه الأبيات، مفارقة بين صورتين الولاء لقومه الذين تخلوا عنه وقوم طلب جيرتهم فأجاروه، فهذا الصراع يتجلى بأوضح صوره، حين يسأم الشاعر من هذا الولاء الخادع للقبيلة الذي يحول

بينه وبين ما يتمناه، فالبُعد الدلالي للزمن يُحوّل إلى مفردات دلالية قادرة على رسم المجال الشعري في مفهومه الذي يشكّل مزاجًا شعريًّا ينطوي على الكثير من المفارقة التعبيرية التي تجسّد تطلعاته.

يقدم لنا النص مشهداً عن أولئك القوم الذين حموه وأصبح فرداً منهم، فالنص يقدم مفارقة لهذا الخليع، تتجلّى في التحوّل الثقافي عنده من السلب إلى الإيجاب الذي يحمل في طياته الفرح والسرور للشاعر على الرغم من الألم الداخلي الذي يشعر به تجاه قبيلته التي رفضته، ولكنه الآن يعيش ذلك التحول في المفهوم الثقافي بين متناقضين القبيلة والشاعر، فالزمن والمفارقة بهذا الوعي يتركان آثاراً واضحة في نفسية الشاعر . على الرغم من التناقض والاختلاف ، فيدفعهم إلى التفاني في التنافس في سبيل اختصار هذا الزمن والهروب من الواقع المعيش بكل تناقضاته ومفارقاته، فهذا الصراع مع الزمن ليس صراعًا مجردًا بل هو اكتشاف للعلاقة الحقيقية بين الفكر والزمن والموت.

ولا يخفى مدى الراحة النفسية التي كان يشعر بها الشاعر حين نظم أبياته هذه، فهذه الأبيات صادرة عن نفس يملؤها الرضى وتغمرها السعادة؛ لأنها وجدت مبتغاها في هؤلاء القوم الذين أدخلوا الشاعر في حمايتهم وكأن قبولهم له وإدخالهم إياه، في حمايتهم، هو بحد نفسه نصر للشاعر في معركته النفسية، فلم يكن أمامه إلا أن يدعو لهم، ويثني عليهم ويشيد بفضلهم؛ بل بلغ به الأمر أن يتخذهم إخواناً له وعشيرة بدل إخوانه وعشيرته الذين تخلوا عنه.

إنّ الذات التي تصنعها المفارقة في عالمها المملوء بالتناقضات تجعلها دائماً قلقة تبحث عن الخلاص بكل صوره وأشكاله، والتعارض الحاصل بين تلك الرؤى يجعل الصراع فاعلاً، فعلى الرغم من أن عقدة السواد كانت تشكل نظرة سوداوية تضرب بثقلها على الشاعر نفسه وإحساسه "لأنّهم وجدوا في مجتمع يحتفل باللون احتفالاً شديداً ويتخذ من الشكل أساساً يقيس به أقدار الناس"(٢٤)؛ لذلك عانى الأغربة ما عانوه جراء سواد بشرتهم الذي لم يكن لهم يدٌ فيه، ولا خلاص لهم منه، فحاولوا بكل جهدهم أن يغيروا نظرة المجتمع الظالمة إليهم وإقناع من حولهم بأن تحت هذه البشرة السوداء قلوباً بيضاء تنبض بالمشاعر والأحاسيس، وقد جعل الأغربة هذا الموضوع نقطة تحول في حياتهم وقضية "جندوا إمكاناتهم المادية والمعنوية للدفاع عنها وكان لها التأثير المباشر وغير المباشر على حياتهم وعلى أشعارهم التي كانت في معظم الأحيان صورة ناطقة عن هذه الحياة"(٢٥).

إنّ الشاعر يعمد إلى تجسيد المفارقة بكل الصور والأشكال، ويقدّم لنا تصوراً خاصاً لتلك العلاقة بينه وبين قبيلته التي تحكمها قيم متجذّرة، فهو يثور عليها ليضع لنا تلك التقاليد بين فكرتين متفارقتين فكرة الولاء

وفكرة الخلع، وتمثلت هذه المأساة بالطريقة التي كان يعامل بها المجتمع الأغربة من امتهان واحتقار واستعباد، ونظرات الازدراء التي كان المجتمع ينظر بها إليهم، فكانت طريقة التعامل هذه لا تليق بطرائق التعامل مع الإنسان العربي ولا تحفظ له كرامته.

وهنا يصبح موقف الشاعر والقبيلة متضادين خلقتهما تلك التقاليد البالية التي لا تحفظ للإنسان كرامته وتجعله عبداً لها، وكانت من آثاره الرفض والتمرد فخلف قطيعة لا يمكن تجاوز أثارها كانت أولاها رفض حالة التهميش والبقاء بلا نسب؛ لذلك كانت ثورتهم إعلان القطيعة مع مجتمعهم والبحث عن نسب ومجتمع بديل، يقول الشنفرى[٢٦]:

وإنّي كفاني فقدُ من ليس جازياً بحسنى ولا في قربه مُتعلَّلُ
ثلاثةُ أصحابٍ: فؤادٌ مُشيَّعٌ وأبيضُ إصْليتٌ وصفراءُ عَيْطَلُ

فمن شدة تمرده أنه لا يتحسر على قبيلته ولا يظهر الأسى لفراقهم بل إنه وجد كفاية نفسه في فقدهم، وهذه المشاعر تظهر حالة نفسية جزعت من الضغوط التي تفرض عليها فنتجت منها سلوكيات مضادة لما اعتاد الناس أن يقوموا به في مشاعر الفراق والهجر، وهذا كله ناتج من نفس لم تعد ترضى بالبقاء مع أناس يضيع معهم الإحسان، ولا في مجالسهم ما يعلل النفس ويمنيها أو يزيل الهم عنها.

يصور الشنفرى في هذا النص المفارقة الحادة لتمرده على قبيلته التي تشكل الأساس الثقافي والاجتماعي له، فيعلن الثورة والتمرد وهذا أقسى ما يمكن تصوره حين يغادر الشاعر المجتمع رافضاً كل ما فيه، فهي تفارق ثقافة الآخر وتخلق متنافرات تحقق ما يريده الشاعر من إثبات للذات، وهذا الشعور الذي يصاحبه هو وصف دقيق لنسق التمرد في ثقافة الشعراء الأغربة ويؤكد في الوقت نفسه خروج الشعراء عن أعراف القبيلة كالثورة على مجتمعهم رافضين الانضواء تحت راية القبيلة، فيؤكد الشاعر في قوله هذا عمق إحساسه بالهوة التي تفصله عن بني قومه، وشدة التوتر في العلاقات الاجتماعية معهم، مما دفعه إلى اختيار عالم الوحوش والضباع بديلاً عن عالم الألم والأذى والقطيعة.

ويزداد إحساس الشعراء الأغربة بأثر المفارقة عندما يرى أن ذلك الإرث الثقافي والاجتماعي الذي تربى عليه هو مجرد وهم وخداع، فهو يرى إنّ تلك القيم التي يراها قد غادرت مفهومها فلم تعد عاملاً فاعلاً؛ بل أصبحت عامل هدم وتدمير لنسق الثقافة والقيم، وهذه المفارقة تجعل الشاعر يثور عليها، ولما كانت القبيلة تخضع للقانون القبلي الذي كان هو القانون الاجتماعي, فكان من الطبيعي أن يكون هناك من يخرج عن هذا القانون، فكان الرفض والتمرد من الأغربة أنفسهم يعد خروجاً عن هذا القانون، هذا الرفض والتمرد الذي كان هو الناتج الأخير لتأثير التقاليد القبلية القاسية وانعدام صوت الحق والتمايز بين البشر.

إنّ هذه المقاربات عميقة الصلة بالنصوص الشعرية للأغربة، فهي تؤكد الطابع النسقي للمفارقة لأنها دلالة تحمل تجليات قارة في نماذج هذه الطائفة من الشعراء وتؤكد طبيعة الوظيفة الفاعلة للمفارقة، ولاسيما ما يخص البنية الدرامية التي شكلت أغلب نصوصهم، وهذه المفارقة القائمة على الموقف تجسد البنية الدرامية لتفصح عن تلك التناقضات التي شكلت النسق المضمر للمجتمع آنذاك، فتصبح العلاقة متوترة بين الشاعر والآخر المتمثّل بالقبيلة، وكان الخروج عن هذا القانون هو بمنزلة الخيانة، لأنّه دستورٌ مقدّسٌ ينظّم أحوال القبيلة ويدير شؤونها، وكان الأساس الذي تقوم عليه نصوص هذا الدستور هو العصبية(٢٧).

وتبدو مفارقة الموقف عند هؤلاء الشعراء تتثمل بأسلوب الرفض والتمرد.

ويشترك تأبط شراً في أسلوب الرفض والتمرد مع الشنفرى، ليلجأ إلى عالم الوحوش؛ لأنه وجده أرحم من عالمه، وهذا ما عبّر عنه بقوله(٢٨):

يبيتُ بِمغنى الوَحْش حتّى ألِفْنهُ ويُصبحُ لا يَحْمي لها الدهْرَ مَرْتعا

رأيْن فَتَى لا صيْدُ وحشٍ يُهمُّهُ فلو صافحتْ إنساً لصافحنه معا

يُظهر لنا هذا النص مدى الألم الذي يتجرعه الشاعر والهموم التي ضاقت بها نفسه ممّا قتل الأمل بداخلها في إصلاح هذا المجتمع أو التعايش معه؛ لذلك اتخذ الشاعر قراراً بهجر هذا المجتمع القاسي الظالم والالتحاق أو الالتجاء إلى عالم الوحش؛ لأنه أرحم في نظر الشاعر من مجتمعه؛ لأنّ الوحوش على الرغم من خطرها وفتكها إلا أنّها لا تميز بين أبيض وأسود أو بين عبد وحر.

إنّ قراءة الموقف الدرامي في هذا النص تضعنا أمام مفارقة نصية، قوامها الذات وعلاقتها بالآخر، فمن خلال تلك المعاني والدلالات التي يرصدها المتلقي يتلمس حركة ارتدادية في نسق الخطاب تحاول نقض تلك القيم والتقاليد الظالمة، ممّا يولد موقفين للمفارقة، فهذا الشاعر يأنس للوحش ويجد في عالمه الأمان والسكينة وهو بحد ذاته مفارقة، فضلاً عن ذلك فالوحوش حين تفتكّ لا تنظر للشكل ولا للون، وحين يصبح عالم الشاعر بهذه السوداوية وهذا الظلم، فنحن نعطيه الحق في تمرده ورفضه، فليس بعد هذا الشعور وهذا الإحساس ما يمكن التعبير عنه، ولهذا حاول الشاعر ان يؤسس لنصه رؤية جدلية تغامر وتبحث عن فضاء روحي انطلاقاً من مفارقة الحياة والمجتمع، ويمضي الشعراء الأغربة في هذا السياق الدرامي مجسدين معاناتهم، وتكمن المفارقة في أن هذا التناقض الكبير في المجتمع الذي رسخ هذا الظلم والتشرد حتى لم يعد أمام الشاعر سوى أن يترك عالمه الحقيقي ويلتحق بعالم الوحوش والسباع.

إنّ هذا التباين والتناقض الصارخ الذي ولدته الحياة، لم يكن للشاعر يد فيه، ولهذا كل النصوص الشعرية للأغربة تجسد واقعهم وعالمهم بشتى أنواع العذاب والظلم الذي وقع عليهم، فما كان من ردة فعل من الشاعر تجاه مجتمعه هي ردة فعل طبيعية، فهو حين ينتقم من مجتمعه لديه العذر، فالقسوة لا تولد إلّا القسوة، والانتقام

كان ردة فعل أمام قسوة القبيلة وظلمها" لأن النزوع العدواني هو قوام الناتج النهائي لنوازع الشر في النفس البشرية، بجانب نوازع الخير، وأن صفحات التلون السلوكي حقيقة من حقائق السلوك"[٢٩]، ويصاحب تلك القسوة فخر بشجاعته وما خلفه من قتل وتشريد في كل من ظلمه ونال من كرامته، ولو وقفنا على بعض تلك النصوص لوجدنا البناء الدرامي للمفارقة ينبني على مفارقة الإنكار وتذكير بماضيهم وما أبدوه من بذل للأرواح في سبيل القبيلة، فهذا الشنفرى يصبح القتل وترميل النساء عنده لذة يمتع بها نفسه، يقول[٣٠]:

فأيَّمتُ نِسواناً وأيتَمْتُ إلدةً وعُدتُ كما أبديتُ والليلُ ألْيَلُ
وأصبحَ عنّي بالغُميضاءِ جالساً فريقان: مسؤولٌ، وآخرُ يسألُ
فإن يكُ من جنٍّ لأبرحَ طارقاً وإن يَكُ إنساً ماكها الإنسُ تفعلُ

الشنفرى لم يتحدث عن قتله للفرسان، بل تجاوز هذه المرحلة إلى ما خلَّفه قتله لهؤلاء الفرسان من ترميل للنساء ويتم للأولاد، فكأنه حاول أن يلحق أكبر قدر من الأذى بهذا المجتمع الذي ظلمه، فبدا جانب الشنفرى النفسي العدواني واضحاً في سلوكه هذا بعد أن أظهر نفسه وكأنها سقط منها جانب الخير.

يرتسم بناء المفارقة في هذا النّص بردة فعل الشاعر القاسية تجاه المجتمع، ومن المسلّم به في ولائه أن يكون المدافع عن القبيلة، ولكن كما قلنا القسوة تولد القسوة، فيعمق الشاعر الهوة بينه وبين قبيلته وتضمحل كل نوازع الولاء لديه، وتبقى مفارقة الموقف الدرامي تحقق التنافر وتوسع الفجوة بين قيم الثقافة ممثلة بنسقها المضمر، فيعمد الشاعر إلى تدمير ذلك النسق وتوسيع المفارقة، فهو يسعى على وفق نسقه الثقافي لتشكيل عالمه المثال، وعلى الرّغم من أن النسقين يصدمان بعضهما ببعض إلا أن ذلك هو ما يؤسس له الشاعر، أو بالأحرى ما دفعه المجتمع إليه، ربما ترتب على هذه المفارقة الدرامية بناء نسق ثقافي جديد بعيد كل البعد عن نسقه الثقافي الذي ورثه، فبيئة الشاعر الجديدة تخلو تماماً من كل عوامل الضعف والولاء، فهناك مجتمع يحمل تصورات جديدة، وتصور الصراع على أنه ثورة على الحياة والزمن معًا، فهذا الصراع يتجلى بأوضح صوره، حين يسأم الشاعر من هذا الزمن الذي يحول بينه وبين ما يتمناه.

فالزمن بهذا الوعي يترك آثاره الكبيرة ويمنح الشعراء . على الرغم من التناقض والاختلاف . خبرات لا متناهية، فيدفعهم إلى التفاني في التنافس في سبيل اختصار هذا الزمن والهروب من الواقع المعيش.

وفي ظلّ هذه الانثيالات النفسية والفكرية تصبح قصائدهم تجسيدًا لرؤية قائمة بذاتها تختلط فيها مشاعر الفردية بمفارقات شتى تشكل كتلة من التصورات المتلازمة التي تؤدي دورها في رسم واقع الأغربة المملوء

بالكثير من التناقضات التي خلفتها الأعراف وتقاليد القبيلة التي كانت ترفض مثل هذه الطبقة من البشر بسبب لونهم، وقد خلف هذا الشعور ثقلاً نفسياً كبيراً لديهم، وأصبح الشاعر محاطاً بالألم ومحاصراً بشعور الضياع والفقد، ويعيش في قبيلته غريباً، وأعطى هذا الإحساس الشاعر بالاغتراب، إذ أصبحت معاناة الشاعر واغترابه يكبران معه في كل لحظة ويزدادان في كل يوم، فكان كل يوم جديد يمر على الشاعر تحت وطأة الاغتراب يحمل في طياته معاني اغترابية جديدة مما عمق معاناة الشاعر وزاد في همومه، ولهذا كان من الطبيعي أن الشاعر كلما أتاه يوم جديد يحن إلى الذي قبله، ليخفف من آلامه ويهون على نفسه شدة وطأة الاغتراب وأثره، ولكن على الرغم من هذا الحب للديار "فثمة علامات اجتماعية تحدد البقاء في مكان ما، وثمة أنماط من المعاناة النفسية تفرض الرحيل عنه، وثمة صيغ تعبيرية تكشف عن جوانب لا حصر لها من الأحداث التاريخية التي تستدعي – التحول المكاني– أو التعامل مع قوانين الحياة السائدة بردود فعل استثنائية تصون كرامة الإنسان"[٣١]، وفي ظل هذه المفارقة بين حب الديار والغربة كانت حالة الشاعر يرثى لها فهو بين نارين: نار الرحيل ونار البقاء وتحمل الضيم والجور، ولهذا فإنّ أكثر الشّعراء تركوا ديارهم مُجبرين، وصوّروا أوجاعهم بقصائد جسدت كل ذلك الألم، فهذا عنترة على الرغم من حبه لعبلة فإنه لا يرضى منها أن تنال من كرامته يقول[٣٢]:

عَجِبَتْ عُبَيْلَةُ مِن فتًى مُتَبَذِّلٍ ... عارِيْ الأشاجعِ شاحبٍ كالمُنْصَلِ
شَعِثِ المفارقِ مُنْهجٍ سربالَهُ ... لم يَدَّهِنْ حَوْلاً ولم يَتَرَجَّلِ
لا يَكتسي إلا الحديدَ إذا اكتسى ... وكذاكَ كلُّ مُغاوِرٍ مُسْتَبْسِلِ
فتضَاحَكَتْ عَجَباً وقالتْ قَوْلَةً ... لا خيرَ فيك، كأنّها لم تَحْفِلِ
لا تَصرميني يا عُبَيلُ ورَاجِعي ... في البصيرةِ نظرةَ المُتأمّلِ

فنجد عنترة على الرغم من حبه لعبلة إلا أنه لا يقبل الإساءة منها فيستبسل في دفاعه عن نفسه ويسعى جاهداً ليظهر نفسه بصورة الفارس البطل الذي لا يهتم لزينة الحياة وترفها ولا يتعلق بالمظاهر الكاذبة؛ لأنه قد نذر نفسه للدفاع عن قومه على الرغم مما لاقاه منهم، فقد تحمّل الكثير من الألم والمعاناة من أجل هذا الحب الذي لم يجنِ منه سوى الألم والعذاب، وقد أسهم حبه لعبلة في تقرير إحساسه بالعبودية وسواد لونه ولاسيما حين

رفض والد عبلة أن يزوجها له، ومما آلمه انضمام الحبيبة المنشودة عبلة إلى المجتمع المستهزئ به والساخر منه، فما كان منه إلا أن ينتفض ضدها ويثور عليها، ويندفع تحت تأثير عامل نفسي يدعوه إلى تفنيد نظرتهم وإثبات بطلانها من خلال دعوته لعبلة بالنظر إلى جوهره لا إلى مظهره.

تبدو مفارقة الموقف واضحة المعالم فهي تعبر عن موقفين متناقضين تجسدهما نظرة عبلة لعنترة وهي تجسيد لنظرة المجتمع، في حين أنّ الشّاعر هو المدافع عن القبيلة، فهو يريد بهذا النص إبطال ذلك النفس الاستعلائي المهيمن على ثقافة القبيلة، وما الشاعر إلا ضحية هذا النسق الثقافي المحفور في وجدان القبيلة، في حين أنّه يريد أن يظهر نسقاً ثقافياً متمثلاً بإظهار شجاعته وجلده في الحروب علّها تنفض ذل العبودية التي جلبها السواد من أمه، وعلى الرغم من ذلك تبدو مفارقة الموقف الذي تجسده عبلة من استهزاء ببطولته.

ففي هذا النص يبدأ النص بقوله: (عجبت) وهي مدار الدلالة ومحور المفارقة التي جسدتها الدوال (فتى مبتذل، وعاري الأشاجع، وشاحب، و شعث المفارق،...) كلها تجسد ثقافة القبيلة التي لا تنظر إلى شجاعته وبأسه، فتطرح هذا الدلالات صوراً تجسد تلك المفارقة للحياة التي عاشها من خلال وعيه الذاتي وثقافته التي استمدها من موروثه، فأصبحت تلك الثقافة تشكل صراعاً داخلياً ذاتياً لتلك السياقات المعرفية التي عاشها الشاعر، فصورة المعادل الموضوعي ما هي إلّا تعبيرٌ عن تلك التناقضات، فولدت نصوص الأغربة من رحم ذلك الصراع الثقافي بينهم وبين قبائلهم.

هذه الذات التي يحاول الشاعر أن يعبر من خلالها عن همومه وأحزانه لا تنفك توظف البناء الدرامي للحدث وتفرض وجودها بفعل التجربة الثقافية في إطار عالم الشاعر الخاص، الذي يبدو متناقضاً مع عالم أكبر متمثلاً بالنظام القبلي الذي يمثل عند الشعراء الأغربة موقفاً ساذجاً لكل ما يمت بصلة إلى ذلك النظام القلبي، مبرزاً حقيقة ذلك من خلال مجموعة من التناقضات التي تشكل مفهوماً قائماً على التناقض والزيف، فعلى الرغم من أن هؤلاء الشعراء من فرسان القبيلة والمدافعين عنها لكنّها تجابه بالرفض والطرد من القبيلة ليس لجرم أو تخاذل، بل لمجرد أن أمهاتهم من الإماء، وولدوا بلون أسود، فكان إحساس الأغربة بالمفارقات الناجمة عن هذا الصراع كبيراً جعلهم يعانون الغربة والتصعلك والحرمان، لقد تمرد الأغربة على الأعراف الاجتماعية للقبيلة التي قمعت من يعيشون في سفحها الاجتماعي فيأتي قول تأبط شراً هذا ليقطع به كل خيط من الخيوط التي كانت تربطه مع قومه، ويقتل كل أمل كان يمكن أن يجمعه بقومه في يوم من الأيام، وذلك لكونه لا يتحسر ولا يتأسف

على من صرمه وقاطعه، فبالمقابل هو لا يهلك نفسه أسى وحزناً؛ لأن نفسه قد اتجهت إلى خيار آخر بسبب الضغوط النفسية التي عاشها واتخذ قراره تحت تأثيرها.

كان خيار الفرار إلى الصحراء سبيلاً لخلاص هذه الفئة، فهي "تعيش في قلق، وتتنازعها أمور عدة، فبعضهم يرى أن بقاءه في بلده من الضعف الذي سيؤدي به إلى النهاية المجهولة، والبعض الآخر يرى إنّ ابتعاده عن الوطن مأساة تزيد على مآسيه التي يعاني منها داخلياً في نفسه"[٣٣]، وهذه المشاعر المضطربة والحائرة من خوض هذه التجربة القاسية هي التي جعلت تأبط شراً يفكر ملياً وينذر قومه ويحذرهم من أنهم إذا استمروا في عذله ومعاملته بطريقة تشعره بالنقص فإنه لن يتردد في اختيار هذا القرار الصعب بعد أن أنذرهم، يقول[٣٤]:

إنّي زعيمٌ، لَئِنْ لم تَتْرُكي عَذَلي	أنْ يَسألَ الحيُّ عنّي أهلَ آفاقِ
أنْ يَسألَ القومُ عَنّي أهلَ مَعْرِفَةٍ	فلا يخبِّرُهُمْ عَن (ثابتٍ) لاقِ

هكذا إحساس الشاعر تأبط شراً بمعنى المفارقة، فهو يطلب من قومه أن يحافظوا عليه كي يضمنوا ولائه وانتماءه تجاههم، فتغافلوا عما أحدثوه من ألم نفسي، ولعل العذل الآتي من القبيلة هو أكثر إيلاماً للشاعر، ففي ثقافة الشاعر ان القبيلة هي المأوى وحين تتحول إلى غير ذلك فإنها ستفقد ولاءه وتدفع الشاعر إلى أن يترك قبيلته مكرهاً، لأن النزوع إلى ذلك يعني الموت والاستسلام، لذا طلب الشّاعر من قبيلته أن تكون الحضن الحاني عليه، وإلا سيتركهم ويكون عدواً لهم، لأنّه يعلم أنّ هذا الفعل سيقضي على ما تبقى من انتماء، وهو ما دفع الكثير منهم إلى البحث عن قوم آخرين والبعض جعل من الحيوانات المفترسة ملاذاً له، فهي أرحم من البشر ولا تغدر بصاحبها وهذا ما أعلنه بعد عزمه على اعتزال بني البشر والبحث عن مجتمعات جديدة من غير البشر يعوض بها النقص الذي يشعر به في نفسه حين قال: فلا يخبرهم عن ثابت لاق.

لقد جسّد الشاعر من خلال هذا النص مفارقة الموقف الممزوج بالألم حينما استوقفته تلك التناقضات في ثقافة القبيلة، فوقف منها موقف الرافض والناقم، فعلى الرّغم من ذلك إلّا أنّه لا يريد أن يتركهم أو أن يتخلّى عنهم، لكنه يطلب منه ترك تلك الأشياء التي تفرق ولا تجمع، ولكنه لا يجد آذاناً صاغية، ولهذا فإن الأمر لا ينطبق على تأبط شراً؛ بل هو أمر جامع لهم جميعاً؛ لأنّها تجسد ثقافة مجتمع لا يمكن تغييره.

فالشنفرى يخص أرضاً دون غيرها لا لشيء إلا لأنها لم تلحق به الأذى ثم أنّه وجد فيها شعوراً بالراحة والاطمئنان فيتخذها منطلقاً لغاراته وغزواته، فيقول[٣٥]:

أُمشِّي على الأرضِ التي لن تَضُرَّني لأبْكي قوماً أو أصادف حُمَّتي
أُمشِّي على أين الغَزاةِ وبُعْدها يقرّبُني منها رواحي وغُدْوتي

فالشاعر يجسد لنا مقدار محنته، ومعاناته، فرؤيته هذه يغلفها نسق ضدي متناقض، وهذه المفارقة ما هي إلا احتجاج على واقع مرفوض كونته ثقافة المجتمع القبلي للعرب قبل الإسلام، فرؤية العالم التي تصنعها ذات الأغربة ليست فيها مثالية أو يوتوبيا، فكل ما يريده أن يحيا بسلام بعيداً عن كل ما يعكر حياته من قيم فاسدة وضعتها عقلية متخلفة، إنّ الشاعر الذي يرزح تحت تأثير الاغتراب ووطأته لم يستطع تحمل المزيد من الاغتراب الذي أضناه؛ لذلك راح يبحث عن وسيلة ليتخلص بها من اغترابه، ولم يجد أحسن من المشي والتنقل في الصحراء.

إنّ غالبية الشعراء الأغربة كانت لديهم عقد شكلت وغيرت مفاهيم كثيرة في حياتهم، والقارئ لشعرهم لا يخفى عليه ذلك "ونحن نحس تلك المرارة التي تفيض بها مشاعرهم وهم يهيمون في الفلوات أحراراً فيما يبدو ومشردين غرباء في الواقع، فإننا نلتفت إلى ما ترك الخلع في وجدانهم من أثر عميق نافذ سجلته أشعارهم المشحونة بأشجان الغربة ووطأة الوحدة النفسية"[٣٦]، وعلى الرغم من كل ذلك الغبن والظلم ظل الشعراء الأغربة يرجون أن يرجعوا إلى قبائلهم معززين يدافعون عنها بكل ما يملكون، ولكن قسوة تلك القبائل حالت دون تحقيق هذا الهدف عند بعضهم.

المبحث الثالث: مفارقة الحدث

من سمات مفارقة الأحداث أنها تكون فاعلة في مجال الزمن، إذ تتسم ببناء درامي واضح أحياناً، ومثلها المعروف :إغراق ضحية بمخاوف معينة، أو آمال، أو توقعات، بحيث يتصرف على أساسها، ويتخذ خطوات ليتجنب شراً متوقعاً، أو يفيد من خير منتظر[٣٧].

النّاظر للوهلة الأولى يرى إنّ هذا النوع من المفارقة سيكون إعادة لما سبق، ولكن حقيقة الأمر هناك اختلاف جوهري في كينونة الشاعر الذي وقع ضحية بين ما يتمناه وما سيقع عليه من تعسف وظلم، ويسعى صانع المفارقة لتجسيد الأحداث بصورة فاعلة وقابلة للمشاهدة من لدن المتلقي حتى يكون فاعلاً في عملية توصيل الخطاب.

تحتل ثنائية الأنا والآخر مساحة واسعة في شعر الأغربة ومن خلال هذه الثنائية رسم الشاعر الأحداث وجعلها فاعلة في نصه، ولهذا حاول الشاعر بناء الحدث من خلال تتابع الأحداث وما عانته ذاته من علاقة مضطربة مع الآخر بكل تسمياته، فمفارقة الأحداث تكون حين يبحث الشاعر عن عالم جديد مختلف؛ لأن الواقع الذي يعيش فيه قد أخذ منه حريته وقيده وسلب منه إنسانيته، لهذا فهو يبحث عن عالم جديد ولكن ربما يصطدم بهذا الواقع الجديد فيظهر له عكس ما كان يرجوه.

ويمكننا أن نقف على بعض نماذج الشعراء التي تجسد لنا مفارقة الأحداث، ويجسد لنا السليك مشاهد اغترابه فيصور لنا هذا المشهد حين جزع رفيقه صرد لفراق أهله، يقول[٣٨]:

بكى صُرَدٌ لمَّا رأى الحيَّ أعرضتْ مهامهُ رملٍ دونهم وشهوبُ
وخوَّفهُ ريب الزمانِ وفقرهُ بلادَ عدوٍّ حاضرٍ وجدوبُ

يتجلّى في هذا النص الخوف من المجهول الذي اضطروا إليه بعد جفاء قبائلهم لهم، فلم يعودوا يعرفون إلى أين يتجهون وما الذي يخبئه الزمان لهم، فمفارقة الحدث تبين أن الشاعر هو الضحية لتلك القيم، فهو على الرغم من أنه كان يأمل من مفارقة القبيلة أن يحظى بشيء من الأمل ولكن يفاجأ بقسوة الحياة، فصديقه صرد اصطدم بهذا الواقع الذي جعله يشعر بالغربة واليأس.

إنّ غياب العدالة الاجتماعية من شأنه أن يجعل الشاعر دائم البحث عن وطن بديل، ودائماً ما تسعى ذات الشاعر للهرب من هذا الواقع الذي يشكل همّا للشاعر، لكن لا يجد مبتغاه فهو يجد غير ما تمناه؛ لذا يلجأ إلى الوحش والصحراء والعزلة محاولة منه لتطييب خاطره على الرغم من أنه يدرك تمام اليقين أنه قد وضع نفسه في مأزق نتيجة ذلك الهرب، ونص السليك يمثل ذلك الأمر خير تمثيل، فمفارقة الأحداث وما رافقها من تناقضات شتى ترسم في مخيلة الشاعر الأسى والحزن؛ لأنّ فراق الأهل ليس بالأمر الهين، وهو وصديقه حين ابتعدا عن ديارهما وبدأت تتلاشى معالم الديار قد أخذ الشوق المغلف بالأسى طريقه إلى نفسيهما، فجسدت لنا المفارقة تعاسة الشاعر وحسرته ولوعته.

كشفت الذات حدة هذا الصراع القائم بين طرفي المعادلة وتعد الذات رمزاً لأحد هذين الطرفين، وطبيعة الخطاب الشعري هنا جاء تعبيراً عن القلق والتشظي الذي تعيشه الذات، وبدت المفارقة ماثلة بين ترك الديار والحزن الذي رافقها واصطدام الشاعر بهذا الواقع الجديد، ممّا جعل المتلقي يتعاطف معه.

وهذا ما يجعل مفارقة الأحداث تجسد بجلاءٍ واقع الشاعر المهزوم بين أمنية ضائعة وواقع يفرض وجوده عليه، فيصدمه ويخيب آماله، يقول عنترة[٣٩]:

حسناتي عند الزَّمانِ ذنوبُ وفعالي مذمةٌ وعيوبُ
ونصيبي منَ الحبيبِ بعادٌ وَلغيْري الدُّنوُّ منهُ نَصيبُ
فكأنَّ الزمانَ يهوى حبيباً وكأَنّي على الزَّمانِ رَقيبُ

الشاعر يريد شيئاً ويأبى زمانه إلا أن يمنع كل أمنياته و أحلامه، ويقف دونها، المفارقة واضحة المعالم، يقوم النص على التضاد فحسنات الشاعر عند الزمان سيئات، وفعاله المشرقة مذمة وعيوب، ولم يقف الحدث

عن هذا، فحبيبته قد منعت عنه الوصال ولم يجنَ إلا البعد في حين أنّ غيره ينعم بالوصال، ويبدو البيت الأخير يجسد قمة ذلك الحزن والأسى الذي يعيشه، وهنا تنقلب الصورة فيصبح الزمان عاشقاً والشاعر رقيباً عليه، إن هذه النص يعبر عن حالة الشاعر وهو يشكو زمانه، فهي تجسد نظاماً قبلياً فاسداً عاشه الشاعر، فهو في غالب نصوصه يفخر بشجاعته وبأسه، ولكن الصورة هنا مخالفة لما يريده فالأحداث تغير وجهة الشاعر وتحبط من عزيمته.

عند تأمّل سياقات النص نجد أن التضاد والمفارقة يتعاضدان على تجسيد القهر والظلم الذي يحيا فيه الشاعر، وهذا التضاد يمنح المفارقة قيمتها الفنية والدلالية المجسدة لحالة الشاعر وما يشعر به من تناقضات شتى، وما صورة الزمان إلا واقع الشاعر الذي يعيشه، فهو يرجو شيئاً ولكن مجتمعه وقبيلته تقف حائلاً دون ذلك، فمفارقة الأحداث تقع كما قلنا سلفاً الشاعر ضحيتها، وتقف الظروف وواقع الشاعر دون تحقيق ما يصبو إليه.

فالتضاد الظاهر يسهم في منح المفارقة خصيصة نصية قادرة على محاكاة الحدث، وتفصح عن علاقة ذات الشاعر بالآخر/ الزمان الذي هو مجتمع الشاعر، فكان الأولى أن يكون هذا المجتمع داعماً للشاعر وقادراً على منحه الحياة والعيش الرغيد لكنه ينقلب من الضد، فتهدم كل الروابط التي تربط الشاعر بقبيلته، وهذا مما ضاعف حزنه وولد لديه شعوراً بالأسى لا يفارقه، لقد تجلت قيمة هذه المفارقة في شعر هذه الفئة، فقد توالت عليهم الكثير من التناقضات والاحزان غير مانحة لهم شعوراً بالتفاؤل بالغد، فكانت أشعارهم تعبيراً عمّا مرّ بهم، وهذا مما زاد في تجسيد الشعور بالغربة الذاتية في كونها "خطوة أولى لبيان اختلال علاقة الذات الإنسانية بواقعها الذي يفترض أن تكون فيه العلاقة بينهما قائمة على التكيف والانسجام"(٤٠).

إنّ مفارقة الحدث بما تمنحه من مقومات فنية للنص تكون قادرة على أن تؤدي دوراً واضحاً في تكثيف المفارقة وجعلها فاعلة على مستوى الدلالة، ولهذا نجدها تتخذ في شعر الأغربة نزوعاً درامياً مبنياً على ثقافتين: ثقافة الشاعر والمخزون الثقافي في النسق المضمر الذي يمثل العادات والتقاليد الموروثة، التي تشكل المواقف والقيم، وتظهر هوية الشاعر وولائه الذي يتحدد على وفق تلك القيم، ولكن حين يصيب ذلك الالتزام اختلالاً في ولاءات الشاعر" إذ نرى أن طاقة الهامشي وثقافته في البطولة تسخّر لصالح الفوقي والاستعلائي الذي يتنكر بدوره لكل جهد بذل في خدمته"(٤١).

وفي بعض الأحيان تكون مفارقة الحدث قائمة على التناقض والتنافر بين البساطة والجهل في التصرف للشخصية والنتيجة التي يخلقها الحدث، وتصبح الشخصية بذلك ضحية المفارقة[٤٢]، ولهذا الشاعر هو دائم التشاؤم من كل ما يحيط به فلم يعد يشعر بالراحة والامان، وهذا الشنفرى هو على يقين بأنه ضحية لما يحيط به، على الرغم من الحذر إلا أنه لا ينجو من الموت، فهو ضحية لكل ما يحيط به من صعلكة وتشاؤم، فيقول متسائلاً[٤٣]:

يا صَاحَبيَّ هَلِ الحذارْ مُسَلِّمِيْ أوْ هلْ لحَتْفِ منيَّةٍ منْ مَصْرفِ

إنِّي لأعْلمُ أنَّ حَتفي في التي أخْشى لَدى الشُّرْبِ القلِيلِ المُنْزِفِ

النص يوحي بكل تلك المفارقات التي شكلها واقع الشاعر المهزوم، فمفارقة الحدث تجسد لنا الشاعر وهو على يقين بأن الموت لا يتركه، وهذا الحذر لا يمكن أن يعطي السلام للشاعر، إن إحساسه بالغربة وهو يغادر قبيلته مرغماً، ويتخذ من الوحش صديقاً وأنيساً له في وحشته، تبين لنا مقدار الألم الذي يحيا في ظله الشاعر.

النص يتخذ من الاستفهام سبيلاً لبيان حتمية الموت، فالحذار والحتف نقيضان لا يتفقان في فكر الشاعر فلا مصرف من الموت ، ولعل البيت الثاني في نص الشاعر يجسد لنا حتمية الموت فلا فائدة من الحذر مادام الموت يتراءى للشاعر بين الفينة والأخرى، فالشاعر ضحية في ظل تلك المفارقات التي عاشها سواء من مجتمعه أو من القريبين له، وهذا قدر الشعراء الأغربة الموت غرباء في الفلوات التي لا يسكنها سوى الوحش.

فمأساة الشاعر يجسدها الزمان والمكان في آن واحد، وهي مادارت عليه غالب نصوص الأغربة، وبنيت عليها المفارقة، فهي تظهر مقدار القلق بين كثير من مفردات الحياة، وأزعجت الشعراء وقضت مضجعهم، ولا سيما الموت والحياة؛ لأن الشاعر يريد أن يحيا ويموت بين ابناء قبيلته ولكن النظر إليهم بمنزلة أدنى وتسميتهم بالخلعاء زادت من حدّة المفارقات لديهم، وهذا ما ولد إحساساً بالخوف وعدم الانتماء، وزادت حدته شيئاً فشيئاً، ولعل هذا ما جسده عنترة [٤٤]:

هل غادَرَ الشُّعَراءُ مِن مُتَرَدّمِ أمْ هَلْ عرفتَ الدارَ بعدَ توهُّمِ

أعياكَ رسمُ الدار لم يتكلَّمِ حتى تكلَّمَ كالأصَمِّ الأعْجمِ

ولقد حبستُ بها طويلاً ناقتي أشكو إلى سُفْعٍ رواكِدَ جُثَّمِ

لقد تملّك الحنين والشوق قلب عنترة فكان حنينه "رغبة ذاتية صادقة في رؤية الموطن الذي نشأ فيه الشاعر وما فيه من أهل وأصحاب مشوبة بخلجات وجدانية وأحاسيس مرهفة تثير الأسى والندم لفراقه والحسرة على نعيمه"[٤٥]، لقد جسد لنا الشاعر مأساته عبر هذا المشهد الطللي لينقل لنا حنينه وشوقه إلى تلك الديار التي فارقها ، ويجسد لنا النص الشاعر الضحية لمشهد يعج بالمفارقة، فإذا الطلل يظهر لنا غربة الشاعر ومأساته؛ لأنّه من علامات الموت، فنزوح الإنسان عن موطنه هو أشبه بالموت، ولعلّ (الدار) ذلك المكان الذي يتعلق فيه الإنسان ويشده الحنين إليه يصبح قفراً لا حياة فيه، ولهذا فالأطلال تحيلنا على مفارقة بين حدثين متناقضين الأول ماضي الشاعر والآخر حاضره المفعم بالأسى والحزن لفقد من أحبهم، ويتنامى الإحساس بالمفارقة في النص حين يطلق الشاعر صيحته ولا يجد إلا صدى كالأصم الأعجم، صورة تعزز الإحساس بالفقد والموت.

يخاطب الشاعر في هذا النص نفسه ليجسد موقفين متضادين بين الشاعر والآخر، فالاستفهام الإنكاري الذي بدأ به النص يجسد أزمة نفسية أقضت مضجع الشاعر، فمجتمعه رفض كل أشكال الحوار معه، فحاول كسر هذا النسق الثقافي الذي يقوم على تمايز البشر من خلال النظر إلى اللون والعرق، غير آبهين بقيم أخلاقية كالعزة والشجاعة والنصرة للقبيلة، وكان قوله: (هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم) تحمل مفارقتين لحدثين قيم المجتمع والتفوق الفردي، وكأن سؤاله يحمل دلالات تهكمية ساخرة من مجتمعه، ولعل هذا ما يمنح النص فاعلية قادرة على محاكاة الحدث وتصويره بهذا الاسلوب الانكاري.

ولعل البيت الثاني يحمل مفارقة ساخرة فيتوجه بخطابه إلى هذه الصخرة السوداء التي تشبه لونه، وهي مثله خانعة ذليلة كالعبيد، ويجعل من هذا الخطاب معادلاً موضوعياً له، فهما مشتركان باللون والسكوت على مشقة البشر وظلمهم، ويبدو مجتمعه الذي يرفضه أعجم لا يفهم ما يريده فعجمتهم تتمثل بالعجمة الإنسانية التي تفقدهم الاستيعاب والتواصل مع قضيته، وهذا ما عمق مهمته وزاد محنته وبدد آماله وتطلعاته[٤٦].

خاتمة البحث:

إنّ من أهم ما خرج به البحث من نتائج تتلخص بما يأتي:

- إنّ الأغربة شكلوا حالة إنسانية حملت في طياتها الكثير من مظاهر المجتمع القاسي فمثلوا حالة التشرد والحرمان بسبب طبيعة قوانين المجتمع الجائرة، فكانوا خير مثال لسلطة القبيلة ووصمة عار في جبين قانون وعرف القبيلة؛ لأنهم أثبتوا فشلها وظلمها.
- شكل مفهوم النسق المضمر في شعر الأغربة أداة فاعلة في الكشف عن خطابهم الأدبي وما انطوى تحته من آليات ثقافية حددت للمتلقي فاعلية هذا النسق .
- إنّ محاولة فهم النسق المضمر من خلال تقنية المفارقة لا يتم التعرف إليه إلا من خلال الأنساق الثقافية الضاربة في كيان المجتمع القبلي للعرب، وإن المجتمع يصنع المفارقة والشاعر بدوره ضحية لتلك المفارقة، فيجسد بخطابه الشعري عمق إحساسه بالهوة التي تفصله عن بني قومه، وشدة التوتر في العلاقات الاجتماعية معهم.
- قامت مفارقة الرؤية على التعارض والاختلاف بين رؤيتين: رؤية حملها الشاعر ورؤية مثلت القانون القبلي للمجتمع فكانت من نتيجة هذا التغاير والاختلاف التصادم ونبذ الاخر ، وهذا ما سعت إليه القبيلة حين وسمت هذه الطبقة بالخلعاء الذين تمردوا على هذا القانون الجائر الذي ينظر إلى الإنسان إلى شكله ونسبه.
- إن السواد كان مصدر الأسى والضياع الذي وسم حياة الأغربة وشحن مشاعر الحرمان والضياع، فكان لابد لهم من أن يثبتوا جدارتهم وبراعتهم، ليعمقوا مقدار المفارقة بين واقعهم وما وصلوا إليه من شجاعة وفروسية يعجز عنها الكثير من الفرسان الأحرار.
- إنّ مفهوم مفارقة الموقف يتمثل بالقدرة على تشكيل جو درامي فاعل في تكثيف حدث المفارقة وتشكيل دلالاته الرامزة، فكان هذا النسق من المفارقة من اهم وسائل الكشف عن أنماط النسق المضمر في خطابهم الشعري.
- إنّ الذات التي تصنعها المفارقة تمثل عالمهم المملوء بالتناقض والاختلاف مما جعل ذاتهم قلقة باحثة عن الخلاص دائماً، فكان من نتيجة ذلك أن تعاظم إحساسهم بالصراع النفسي، وتعمق مفهوم المفارقة نتيجة عقدة السواد التي لم تكن لهم يد بها؛ لذلك حاولوا بكل جهدهم تغيير نظرة مجتمعهم لهم لكنهم أخفقوا فظلت تلك العقدة ترافقهم حتى مماتهم .
- قامت مفارقة الأحداث على تفعيل مفهوم الزمن الذي شكل بناؤه الدرامي القدرة على تجسيد واقع الشاعر المتأزم، ويسعى صانع المفارقة لتجسيد الأحداث بصورة فاعلة وقابلة للمشاهدة من قبل المتلقي حتى يكون فاعلاً في عملية توصيل الخطاب.

- إنّ مفارقة الحدث بما تمنحه من مقومات فنية للنص تكون قادرة على أن تؤدي دوراً واضحاً في تكثيف المفارقة وجعلها فاعلة على مستوى الدلالة، ولهذا نجدها تتخذ في شعر الأغربة نزوعاً درامياً مبنياً على ثقافتين: ثقافة الشاعر والمخزون الثقافي في النسق المضمر الذي يمثل العادات والتقاليد الموروثة، التي تشكل المواقف والقيم، وتظهر تلك الأنساق المضمرة هوية الشاعر وولائه.

هوامش البحث:

١ المفارقة في شعر المتنبي، د. عبد الهادي خضير ، مجلة كلية التربية للبنات، جامعة بغداد سنة ٢٠٠٠ العدد: ١١، ص٣.

٢ جماليات التحليل الثقافي في الشعر الجاهلي، د. يوسف عليمات:٢٧٨ .

٣ دليل النّاقد الأدبي ، ميجان الرويلي، وسعيد البازعي، ص٨١ .

٤ جماليات التحليل الثقافي– الشعر الجاهلي نموذجا:٢٩٠.

* الأغربة: أطلق هذا الاسم على طائفة من الشعراء الذين تسرب إليهم السواد من أمهاتهم الإماء، والذين في الوقت نفسه لم يعترف بهم آباؤهم العرب، أو اعترفوا بهم على ضيق منهم، فعانوا من ضياع الحقوق والقدر والاحترام وتجرعوا مرارة الغربة وهم بين أبناء جلدتهم بسبب النزعة العرقية والعصبية القبلية ينظر: ثمار القلوب، للثعالبي: ١٥٩.

وقد ذكر السيوطي أن الأغربة في الجاهلية يعني السودان،وهم: عنترة، وخفاف بن ندبة، وأبو عمير بن الحباب السلمي، والسليك بن السلكة، وهشام بن عقبة بن أبي معيط وهو مخضرم، وتأبط شراً والشنفرى ينظر: المزهر، للسيوطي: ٣٦٨/٢ .

٥ الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي: ٥٦.

٦ شرح شعر الشنفرى: ٦٢.

٧ ديوان تابط شرا:١٣٧ .

٨ اللغة الشعرية، محمد كنوني:٢٧ .

٩ النقد الثقافي، عبدالله الغذامي:١٣٠.

١٠ ديوان عنترة العبسي:٢٥٣ وما بعدها.

١١ ينظر: الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، عبده بدوي: ٢٨٨ .

١٢ السليك ين السلكة، أخباره، شعره: ٥٠ .

١٣ ينظر: الشخصية بين النجاح والفشل، عباس مهدي البلداوي: ١٥٧.

١٤ المفارقة في الشعر العربي الحديث، ناصر شبانة:٤٧ .

١٥ مقالات في الأسلوبية ، منذر عياشي : ١٤٧ .

١٦ ينظر : المفارقة، ميوك: ٧٨ .

١٧ الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية: ٢٠٠

١٨ جماليات النسق الضدي شعر أبي العلاء المعري أنموذجاً ، سمر ديّوب، مجلة التراث العربي–مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب–دمشق العدد ١١٠ السنة الثامنة والعشرون – حزيران ٢٠٠٨ – جمادى الآخرة ١٤٢٩، ص١٧ .

١٩ ديوان عنترة: ٢٤٨–٢٥٠

٢٠ ديوان عنترة: ٢٧١

٢١ ينظر: اتجاهات الشعر العربي المعاصر، إحسان عباس: ٢٠٨.

٢٢ النفس والعدوان، د. ريكان إبراهيم:١٨

٢٣ ينظر الأغاني: ١٤/ ١٥٢ ـ ١٥٣، وينظر: شعر قيس بن الحدادية، صنعة الدكتور حاتم صالح الضامن، مجلة المورد، مجلد٨، العدد: ٢، ١٩٧٩، وزارة الثقافة والإعلام، دائرة الشؤون الثقافية.

٢٤ شعر العبيد في الجاهلية وصدر الإسلام، د. محمد أبو المجد: ١٥٥

٢٥ الغزل عند الشعراء السود: ١٧٥.

٢٦ شرح شعر الشنفرى: ٦٧

٢٧ ينظر الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي: ٨٩.

٢٨ ديوان تأبّط شراً: ١١٥ ـ ١١٧ .

٢٩ النفس والعدوان، د. ريكان إبراهيم: ١٠

٣٠ شرح شعر الشنفرى: ٨٧ وما بعدها.

٣١ المكان في الشعر العربي قبل الإسلام، حيدر لازم مطلك، رسالة ماجستير: ٢٢٣.

٣٢ ديوان عنترة: ٢٥٣.

٣٣ الشكوى من العلة في أدب الأندلسيين، د. عبد الله علي ثقفان: ٣٤

٣٤ ديوان تأبط شراً: ١٤٢.

٣٥ شرح شعر الشنفرى: ٩٩.

٣٦ قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، د. بنت الشاطئ (عائشة عبد الرحمن): ٣٦.

٣٧ ينظر: المفارقة وصفاتها، ميونك، ترجمة: د.عبد الواحد لؤلؤة، دار المأمون، بغداد، ١٩٨٧ م، ص٧٩.

٣٨ السليك بن السلكة (أخباره وشعره): ٤٤–٤٥.

٣٩ ديوان عنترة: ٢٧٨ .

٤٠ الاغتراب في شعر شعراء النقائض في العصر الأموي، نوال نعمان كريم، رسالة ماجستير: ١٤.

٤١ جماليات التحليل الثقافي:٢٩٤.

٤٢ ينظر: المفارقة في شعر بلند الحيدري، نوزاد حمد عمر، دار غيداء للطباعة، ط١ ،٢٠١٧: ١٦٥.

٤٣ شرح شعر الشنفرى: ١٢١.

٤٤ ديوان عنترة: ١٨٢–١٨٣.

٤٥ القصص القرآني في الشعر الأندلسي، أحمد حاجم الربيعي: ٢٠١.

٤٦ ينظر: البطولة في الشعر الجاهلي، منذر الزغبي، أطروحة دكتوراه، جماعة اليرموك، ١٩٩٧، ٢٥ .

- **ثبت المصادر والمراجع:**

ـــ الكتب:

- اتجاهات الشعر العربي المعاصر، الدكتور إحسان عباس الناشر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت، ط١ ، ١٩٧٨م.
- الأغاني، أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت٣٥٦هـ)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة، مصر، ١٩٧٦م
- تمثيلات الآخر.. صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، د. ناظم ثامر الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ٢٠٠٤.
- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، أبو منصور الثعالبي (ت٤٢٩هـ) دار المعارف، القاهرة(د.ت)
- جماليات التحليل الثقافي– الشعر الجاهلي انموذجاً د. يوسف عليمات، دار الفارس للتوزيع والنشر، عمان، ط ٤ ، ٢٠٠٤ م.
- دليل الناقد الأدبي_إضاءة لأكثر من سبعين تياراً ومصطلحاً نقدياً معاصراً، د. ميجان الرويلي و د.سعد البازعي، المركز الثقافي العربي، ط٣ ،٢٠٠٢ م.
- ديوان تأبط شراً وأخباره، جمع وتحقيق وشرح علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي ط١, ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.
- ديوان عنترة، تحقيق: محمد سعيد مولوي، القاهرة: مكتب الإسلامي، د، ط، ١٩٦٤.
- السليك بن السلكة (أخباره وشعره)، دراسة وجمع وتحقيق: حميد آدم ثويني، وكامل سعيد عواد، مطبعة العاني بغداد ، ١٩٨٤
- الشخصية بين النجاح والفشل، عباس مهدي البلداوي، مكتبة النهضة العربية، بغداد، ١٩٨٥.
- شرح شعر الشنفرى الأزدي، لمحاسن بن إسماعيل الحلبي، تحقيق وتعليق: د. خالد عبد الرؤوف الجبر ، ط١، دار الينابيع، ٢٠٠٤.
- الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، عز الدين إسماعيل، دار الفكر العربي, بيروت, ط٣، ١٩٨١.
- شعر العبيد في الجاهلية والإسلام، د. محمد أبو المجد، كلية الدراسات العربية والإسلامية، جامعة القاهرة، دار الشروق للطبع، ط٢، ١٩٩٥م.
- الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، د. عبده بدوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط)، ١٩٨٨.
- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، يوسف خليف، دار المعارف، مصر، ١٩٥٩.
- الشكوى من العلة في أدب الأندلسيين، د. عبد الله بن علي بن ثقفان، مكتبة التوبة، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٩٩٦م.
- القصص القرآني في الشعر الأندلسي، أحمد حاجم الربيعي، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد، ط١، ٢٠٠١م .

- قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر، د. بنت الشاطئ (عائشة عبد الرحمن)، دار المعارف ، القاهرة، ط٢، ١٩٧٠ م.
- اللغة الشعرية –دراسة في شعر حميد سعيد، محمد كنوني، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط١، ١٩٩٧ م.
- المزهر في اللغة وأنواعها، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت:٩١١هـ)، تحقيق: فؤاد علي منصور دار الكتب العلمية بيروت، ط١, ١٤١٨هـ – ١٩٩٨م
- المفارقة في الشعر العربي الحديث (أمل دنقل، سعدي يوسف ، محمود درويش أنموذجاً)، ناصر شبانة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت ،٢٠٠١م.
- المفارقة في شعر بلند الحيدري، نوزاد حمد عمر، دار غيداء للطباعة، ط١، ٢٠١٧م.
- المفارقة وصفاتها، ميونك، ترجمة: د.عبد الواحد لؤلؤة، دار المأمون، بغداد، ١٩٨٧ م.
- مقالات في الأسلوبية ، د. منذر عياشي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، ط١ ، ١٩٩٠م.
- النفس والعدوان: دراسة نفسية اجتماعية في ظاهرة العدوان البشري، د. ريكان إبراهيم، دار الشؤون الثقافية العامّة، ط١، ١٩٨٧م.
- النقد الثقافي ـ قراءة في الأنساق الثقافية العربية، د. عبدالله الغذامي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط٣، ٢٠٠٥ م.

ـــ رسائل وأطاريح:

- الاغتراب في شعر شعراء نقائض العصر الأموي (جرير، الفرزدق، الأخطل)،نوال نعمان كريم، (رسالة ماجستير) كلية التربية للبنات، جامعة تكريت، ٢٠٠٤ م.
- البطولة في الشعر الجاهلي، منذر الزغبي، أطروحة دكتوراه، جامعة اليرموك، ١٩٩٧م.
- الغزل عند الشعراء السود، فوزية زمباوي، رسالة ماجستير، معهد الآداب الشرقية في الجامعة اليسوعية، بيروت.
- المكان في الشعر العربي قبل الإسلام، حيدر لازم مطلك، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٨٧ م.

ـــ أبحاث منشورة:

- جماليات النّسق الضدي: شعر أبي العلاء المعري أنموذجاً ، سمر ديّوب، مجلة التراث العربي–مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب–دمشق العدد ١١٠ السنة الثامنة والعشرون – حزيران ٢٠٠٨ .
- المفارقة في شعر المتنبي، د. عبد الهادي خضير ، مجلة كلية التربية للبنات، جامعة بغداد سنة ٢٠٠٠ العدد :١١ .